الجامعة الاسلامية العالمية ماليزيا
INTERNATIONAL ISLAMIC UNIVERSITY MALAYSIA
يونيورسيتي إسلام انتارابغسا ملايسيا

الجامعة الاسلامية العالمية - ماليزيا

كلية معارف الوحي والعلوم الانسانية

منهج الإمام المحاسبي في تزكية النفس

" دراســة تحليليــة "

بحث تكميلي لنيل درجة الماجستير

في علوم الوحي والتراث

إعــداد:

عبد الرشيد آدم محمود الندوي

إشــراف:

الأستاذ المشارك د. عبد الله حسن زروق

DONATED TO THE LIBRARY OF
INTERNATIONAL ISLAMIC UNIVERSITY
BY

.....

.....

Date Received : .....

العام الدراسي: 1994م - 1995م.

DECLARATION OF AUTHOR'S RIGHTS

The copyright of this thesis belongs to the author under the terms of the Copyright Act, 1987 (Act 332) Due acknowledgement must always be made of the use of any material contained in, or derived from this thesis.

examiners committee

1- THE SUPERVISER

NAME: Dr. Abdullahi Hassan Zaroug

SIGNATURE: 12/5/95

ACADEMIC ADVISOR Abdullahi Hassan Zaroug

2- SECOND READER

NAME : Professor. Dr. Abdul Majid Mackeen

SIGNATURE:

ACADEMIC ADVISOR A. Majid M. Mackeen

3- HEAD OF THE DEPARTMENT

NAME: DR. THAMEEM USHAMA

SIGNATURE:

DR. THAMEEM USHAMA
Head
~~Department of~~ Islamic Revealed Knowledge and Heritage
Kulliyyah of Islamic Revealed Knowledge and Human Sciences

4- DEAN OF THE FACULTY

NAME:

SIGNATURE:

DR. SIDEK BABA
Deputy Rector (Student Affairs)
International Islamic University Malaysia
In-Charge of
Kulliyyah of Islamic Revealed Knowledge and Human Sciences

إهـــداء

الى الوالد العزيز والى روح أمي الحنونة (رحمها الله) والى اخوتي وأخواتي، والى شيخي العزيز ابو عبد الله نادر النوري، والى أصدقاء الدرب أهدي هذا العمل المتواضع.

وفقنا الله جميعا لما يحبه ويرضاه

Dedication

To my beloved parents, brothers and sisters, my dear ustaz Abu AbdaLLah Nadir An-Nuri, my friends and those who work for the sake of the Ummah.

كلمة شكر وتقدير

يسعدني كثيرا بعد أن وفقني الله الى اتمام هذا العمل المتواضع أن أقدم شكري الجزيل لكل من ساعد في انجاز هذا البحث وأخص بالذكر مشرفي الأستاذ المشارك الدكتور عبدالله حسن زروق الذي أمدني من وقته ومن علمه ما أنار لي الطريق وزودني بالعديد من الأفكار.

وأنتهز هذه الفرصة لأبدي شكري وتقديري للأستاذ الكريم ابو عبدالله نادر عبد العزيز النوري على ما بذله من جهد وما أسداه لي من مساعدة ليس فقط في انجاز هذا البحث ولكن كذلك في العديد من مراحل دراستي.

كما يسرني أن أشكر الأستاذ الكريم الدكتور عبد المجيد مكين على ملاحظاته المهمة وتفضله بقراءة ومراجعة هذا البحث.

وكذلك أتوجه بالشكر لكل من الأساتذة الكرام: الأستاذ الدكتور مالك بدري، والدكتور ابراهيم زين، والدكتور زياد الدغامين، والأستاذ قطب ساتو، والأستاذ حرسي محمد، على ما قدموه لى من ملاحظات قيمة.

كما أشكر الأستاذ المرحوم محمد عمر با عبدالله (طيب الله ثراه) وابناءه الكرام، والأخ لطفي أ. أ. لجام، على مساهمته الفعاله لإنجاز هذا البحث.

وكذلك أشكر زملائي في الجامعة وأصدقائي حول العالم على معاونتهم في انجاز هذه الرسالة، سواء بالتشجيع أو بتوفير المراجع.

وأخيرا أشكر الجامعة الاسلامية العالمية وقيادتها على تشجيعها للبحث العلمي وتوفيرها للجو المناسب له.

المحتويات

ـ تمهيد	1
1 : مقدمات البحث	1
ـ المشكلة	2
ـ أهمية البحث	2
ـ منهجنا في البحث	3
ـ الدراسات السابقة	3
2: المحاسبي ـ حياته	6
ـ نسبه ونشأته	6
ـ دراسته	7
ـ تلاميذه	8
الفصل الأول ـ البيئة التي عاشها المحاسبي	9
1ـ الصراعات السياسية الفكرية	10
2ـ المحاسبي والفرق اللاسلامية	12
ـ المعتزلة	12
ـ الفقهاء والمحدثون	13
ـ الصوفية	14
3ـ موقف المحاسبي من هذه البيئة	16

الفصل الثاني ـ النفس في الفكر الفلسفي 18

ـ تمهيد 19
1ـ الفارابي 21
2ـ ابن سينا 27
3ـ ابن مسكويه 31

الفصل الثالث ـ النفس عند المحاسبي 35

ـ تمهيد: الانسان وطبيعته 36
1 ـ النفس 38
2 ـ تصنيف المحاسبي للنفس 43
3 ـ الشهوات 49
4 ـ الإرادة 51
5 ـ العقل 55

الفصل الرابع ـ تزكية النفس 60

أولا : الوقاية والتنمية 61
ـ تمهيد 61
ـ التيقظ والغفلة 63
ـ معرفة الخير والشر 65
ـ المراقبة 69

ـ المحاسبة	71
ـ معرفة خداع النفس	77
ـ الرياضة والمجاهدة والصبر	79
ـ العبادات والذكر	83
ـ الزهد	86
ـ المحبة والخوف	89
ثانيا : علاج أمراض النفوس عند المحاسبي	92
ـ تمهيد	92
1ـ العجب	95
ـ علاج آفة العجب	100
2ـ الكبر وعلاجه	104
3ـ الغرة	109
ـ علاج الغرة	112
4ـ الحسد	115
ـ علاج آفة الحسد	120
الخاتمة	126
المصادر والمراجع	130

بســـــــم الله الحمٰن الرحيم

تمـهـيـد

١ ـ مـقـدمـات الـبـحـث

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه وسلم وبـعـــــــد:

لقدكان للمسلمين الريادة والقيادة الحضارية في العالم، وكانت الحضارة الإسلامية هي الحضارة السائدة، ولكن ضعفت الأمة الإسلامية لعوامل عدة منها داخلية كالاختلافات السياسية والمذهبية وكانغماس كثير من ولاة الحكم في الدولة الإسلامية في حياة الترف وملذات الدنيا، إضافة إلى ذلك فقد دخل في الإسلام أمم ذات حضارات وفلسفات تخالف الإسلام في كثير من أفكارها وتصوراتها التي أنبنت على أسس الشرك ومنطلقات اللادينية.

ولقد شهد التاريخ عدة حركات إصلاحية إذ كان أصعب ما يواجه علماء الإسلام ومفكروه معرفة أسباب الضعف وعلاجها، فتباينت الآراء واختلفت الأفكار الإصلاحية ومناهجها، فمنهم من رأى التمسك بالشريعة والالتزام بقوانينها المستنبطة من نصوص الكتاب والسنة، ومنهم من رأى أنّ الأزمة أزمة عقل فاهتموا بالجانب العقلي وحاولوا التصدي بهذا السيل من الفلسفات الإغريقية وحضارتها المادية ودحض أفكارها الباطلة بحجج مستمدة من الوحي الإلٰهي.

ومنهم من وجه نفسه إلى إصلاح النفس ومراقبتها بالمحاسبة وبالخوف والرجاء وبالعزلة والخلوة، وبيان عيوبها من الكبر والعجب والحسد وسوء الظن ...إلخ، ورأوا أن إصلاح النفس وصقلها بذكر الله والتضرع إليه هو صلاح الدنيا والدين.

وكان الإمام المحاسبي هو صاحب هذه المدرسة الذوقية التي حاولت إصلاح الجانب الروحي وربط أعمال القلوب بأفعال الجوارح.

المشكلـــــة

لا يزال عصرنا الحاضر مع ما فيه من تقدم تكنولوجي يعاني من أزمات نفسية ومشاكل إجتماعية كالتي كان الإمام المحاسبي وأمثاله يحاولون أن يجدوا لها حلولا، فمن الجماعات الإسملامية من يعتقدون أن مشكلة المسلمين اليوم هي تركهم للعقيدة الصحيحة التي إذا صلحت صلح أمرهم، ومنهم من يرى أن سبب تأخر المسلمين من يعتقد أنّ أزمة المسلمين اليوم إنما هي أزمة الفكر، ففي رأيهم أنّ المسلمين لو أحسنوا استخدام عقولهم وإعمالها في المصدرين الأساسيين وهما الوحي والكون لانحلت مشاكلهم الدينية والدنيوية، ومنهم من يرى أن سبب ضعف المسلمين هو تركهم للشريعة الإسلامية وتحكيم قوانينها، كما أن هناك من رى أن أول ما يجب أن يبدأ به هو إصلاح الروح والنفس إذ إنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله.

المشكلة إذ؟ هي معرفة أسباب ضعف المسلمين وتأخرهم في عديد من ميادين الحساة الدينية والدنيوية وإيجاد حلول مناسبة لها.

لا شك أن هناك حلولاً لمشاكل العصر فلكل داء دواء بشرط أن يوجد الطبيب الماهر، وما أحوجنا في مثل هده الحالة إلى دراسة مناهج أسلافنا الإصلاحية دراسة تتسم بالموضوعية وبالنقد البناء لنتمكن من الإستفادة من إسهاماتهم وتجنب أخطائهم.

أهـميـــة البحـــث

إنّ للتصوف عموماً أهمية كبيرة إذ يمثل الجانب الروحي والأخلاقي في الإسلام وذلك ما التزم معايير الوحي، فهو يهتم بتزكية النفس وتطهيرها من كل شائبة قد تطر؟ عليها.

من ناحية أخرىٰ فإنّ الإسلام قد دخل في كثير من البلدان - وخاصة بلدان إفريقيا - عن طريق دعاة الصوفية، ولكن «الصوفي» هذا اتصف ببعض الإنحرافات مما جعل بعض الفرق والجماعات الإسلامية

يكفرون أصحابه ويفسقونهم دون أن يفرقوا بين الصالحين والطالحين منهم، فالتصوف لا يزال ذا أهمية ونفوذ في تلك البلاد، كما أنّ له جوانب إيجابية كثيرة يمكن أن يستفاد منها.

كما تتلخص أهمية هذه الدراسة في أنها يمكن أن تُعتبر محاولة لمعرفة طبيعة النفس البشرية ووسائل تزكيتها.

منهجنا في البحث

منهجنا منهج العرض والنقد، حيث نستعرض ما كتبه الإمام في الموضوع ثم نحلله ونوضح مدىٰ صلاحية منهجه في تزكية النفس، ومعيارنا في النقد هو الكتاب والسنة وما يوافق العقل السليم، كما سنتعرض - إن شاء الله - إلىٰ أقوال الإمام الغزالي والإمام إبن القيم في بعض المواضيع على سبيل المقارنة

إلى جانب هذا فسوف نبدأ بذكر آراء بعض الفلاسفة الإسلاميين في النفس وطبيعتها وقواها، ونخص بالذكر: الفارابي، وابن سيناء، وقد اخترنا هؤلاء الثلاثة كنموذج للذين درسوا النفس وحاولوا إصلاحها مستخدمين المنهج الفلسفي.

الدراسات السابقة

إنّ أكثر ما كتب عن المحاسبي إنّما هو جمع لآثاره وتحقيق لكتبه ثم التقديم لها وشرح لبعض ما صعب من معانيها، ولكن لا نجد أحداً قد افرد دراسة وافرة لمنهجه في تزكية النفس الأمر الذي نزعم القيام به في هذا البحث.

دعنا نستعرض جانبًا من تلك الدراسات، هنالك الدراسة التي قام بها عبد الفتاح أبو غدة الذي حقق وخرج أحاديث «رسالة المسترشدين»،والدراسة التي قام بها عبد القادر أحمد عطا الذي حقق كتابي «الرعاية لحقوق الله» و«آداب النفوس»، وكذلك الدراسة التي قام بها الدكتور حسين القوتلي الذي حقق نصوص كتابي «ماهية العقل»و«فهم القرآن».

وقد ألف الدكتور عبد الحليم محمود كتابًا عن المحاسبي سماه «أستاذالسائرين الحارث بن أسد المحاسبي » وهو كتاب ذو أهمية خاصة لدارسي فكر المحاسبي.

وقد تكلم الدكتور عبد الحليم عن المحاسبي وفضله والباعث على تصوفه كما تكلم عن مؤلفاته وما تناوله من المواضيع بصورة مجملة، ووضع ترتيبًا تاريخيًا لمؤلفاته.

ولكن الدكتور كان متعاطفًا في بحثه إلىٰ حد كبير مع الإمام إذ يؤول تأويلا إيجابيًا كل ما ذهب إليه الإمام ولو كان هذا التأويل تأويلا ضعيفًا.

وأما الأخت فاطمة الجيلاني فقد كتبت عن فكر الإمام في علم النفس مقارنة أفكاره بعلم النفس الحديث، وقد حاولت إعطاء آراء الإمام في النفس وأمراضها صبغة حديثة ، و لذلك كانت دراستها لا تتعدى نطاق علم النفس الحديث فقد قالت:-« .... ولكن كانت صعوبة الدراسة في جمع أي عبارة أوفكرة مبعثرة في كتبه يستشم منها نطاق علم النفس وكان لزاما علىٰ الباحثة الوصول إلىٰ هذه الأفكار والآراء لقيام بدراسة

عامة لعلم النفس لمعرفة مفهومه، ومناهجه ونظرياته

والمشكلات التي يعالجها»1 .

إنّ دراستنا هذه تهدف - كما أشرنا إلىٰ ذلك سابقاً- إستعراض أفكار الإمام في اكتشاف سرائر الأفئدة وآفاق البصائر والأنفس في سبيل اصلاح الباطن وتنقية القلوب من الشوائب، اذ هي مركز البدن ومحرك الجسد، فاذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله كما قال الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم. نسأل الله تعالى أن يجعل عملنا هذا وسيلة إلى غاية محمودة.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

---

1)- فكر الإمام المحاسبي النفسي من منظور علم النفس الحديث، ص ٧.

- المحـــاســـــبي - حـــياتـــه

(أ)- نسبـه ونـشـأتـــه

إسمـه الـحـارث بـن أسـد الـعـنـزي، وكـنـيـتـه أبـو عـبـد الله والـمـشـهـور بـ«الـمـحـاسـبي» ولـم تـذكـر الـمـصـادر الـتـي كـتـبـت عـنـه تـاريـخ ولادتـه، ولـد في مـديـنـة الـبـصـرة وقـضـى فـيـهـافـتـرة من حـيـاتـه لـم تـعـرف مـدتـهـا، ثـم سـافـر إلـى بـغـداد طـلـبـاً لـلـعـلـم، وذكـرت الـمـصـادر[1]، أن الـمـحـاسـبـي ولـد في أسـرة غـنـيـة، ولـمـا تـوفـي والـده تـرك لـه ثـروة كـبـيـرة، ذكـر الـقـشـيـري أنـهـا كـانـت سـبـعـيـن ألـف درهـم، ولـكـن الـمـحـاسـبـي لـم يـأخـذ مـنـهـا شـيـئـاً، وقـد عـلـل الـقـشـيـري ذلـك فـقـال:-« قـيـل لأن أبـاه كـان يـقـول بـالـقـدر فـرأى في الـورع أن لايـأخـذ من مـيـراثـه شـيـئـاً »[2] ،ويـؤكـد هـذا الـتـعـلـيـل مـا أورده الـدكـتـور الـقـوتـلـي من أن الـمـحـاسـبـي تـعـلـق بـأبـيـه يـومـاً في وسـط الـطـريـق وقـد اجـتـمـع الـنـاس حـولـه وهـو يـسـأل والـده بـطـلاق أمـه لأنـه في دين وهـو عـلـى غـيـره[3].

ومـاقـالـه الـدكـتـور عـبـدالـحـلـيـم مـحـمـود في تـعـلـيـل هـذه الـحـادثـة قـد يـكـون أقـرب إلـى الـصـواب إذ قـال:-«ولـكـن الـمـحـاسـبـي - فـيـمـا يـبـدو - امـتـنـع عـن ذلـك لـمـجـرد الـورع، والـزهـد فـيـمـا تـجـره الـثـروة وتـسـتـتـبـعـه من

---

1)- الـرسـالـة الـقـشـيـريـة ،ص١٢ ، وأسـتـاذ الـسـائـريـن ،ص٨.
2)- الـرسـالـة الـقـشـيـريـة ،ص١٢.
3)- أنـظـر مـقـدمـة الـقـوتـلـي لـكـتـاب «الـعـقـل وفـهـم الـقـرآن» ،ص١٣.

تفكير فيهاوتدبير لهاوتنمية وحفظ»[1]، ويؤكد هذا ما ذكره تلميذ المحاسبي «بن مسروق» أن ذلك إنما كان بواقع الورع والخشية.

(ب) ـ دراســـتـــــــــه

حسب إطلاعي على المراجع المتاحة لم أقف على أن المحاسبي درس عند شيخ معين بالذات ومع هذا فيمكننا معرفة شيوخ المحاسبي عن طريق رواياته، لقد كانت الأمة الإسلاميةحين كان المحاسبي في ريعان شبابه مليئة بالعلماء والمفكرين في مختلف الميادين ، فمن العلماء المشهورين حين ذاك،الإمام مالك بن أنس المتوفى سنة(١٧٩هـ)، والإمام أبو يوسف صاحب أبوحنيفة المتوفى سنة (١٨٢هـ)، والإمام الشافعي المتوفى سنة(٢٠٤هـ)، وذو النون الصوفي، والإمام أحمد بن حنبل المتوفى سنة (٢٤١هـ).

يروي المحاسبي عن هشيم بن بشير المكنى بأبي معاوية المتوفى سنة(١٨٤هـ)، و من أشهر روايات الإمام عن يحيى بن بكر الكوفي(٢٠٩هـ)، وعبدالله بن بكر(٢٠٨هـ)، و حجين بن المثنى، كما أن أكثر رواياته في كتابه«فهم القرآن» عن ابن عبد الله القاسم بن سلام المتوفي سنة (٢٢٤هـ) والحجاج بن حماد بن سلمة وسنيد بن داوود(٢٢٦هـ) وشريح بن يونس(٢٣٥هـ) ويزيد بن هارون(٢٠٦هـ) كما يروي في كتابه «العقل» عن عفاف بن مسلم البصري، وقد ذكرت المصادر على أنه تتلمذ على الإمام الشافعي[2].

---

1)ـ أستاذ السائرين ص ٨.
2)ـ أنظر البغدادي، أصول الدين ص٣٠٨.

ج - تـــــلاميـــــذه

لقد كانت للإمام حلقة علمية ومدرسة لتهذيب النفوس، كما يُعدّ من أكبر شيوخ الصوفية، يقول السلمي في« طبقات الصوفية»:ـ

« وهو أستاذ أكثر البغداديين»[1]، ويقول الذهبي في سيّر أعلام النبلاء:ـ«الزاهد العارف، شيخ الصوفية»[2]، أما من الذين أخذوا عنه أو صحبوه فقد ذكر بعضهم الدكتور القوتلي وهم: ابن مسروق، والجنيد، ومعروف الكرخي، وابن عطاء، وعمر بن عطاء المكي[3].

---

1)ـ طبقات الصوفية، ص ٥٦.
2)ـ سير أعلام النبلاء/ج١٢،ص١١٠.
3)ـ أنظر مقدمة القتلي لكتاب العقل وفهم القرآن،ص٥٤.

الفصـــل الأول ـ البيئـــة التي عاشـــها المحـاسبي.

١ـ الصراعات السياسة.

٢ـ المحاسبي والفرق الإسلامية.

أ ـ المعتزلة.

ب ـ الفقهاء والمحدثون.

ج ـ الصوفية.

٤ـ موقف المحاسبي من هذه البيئة.

١- الصراعات السياسية والفكرية

نشأ المحاسبي وترعرع في جو من الصراعات العنيفة، سواء كانت هذه الصراعات صراعات مذهبية أوفكرية أوسياسية، لهذايتحتم علينا قبل الدخول إلى منهج المحاسبي عن النفس وتزكيتها إلقاء الضوء علىٰ البيئة التي عاش فيها.

يعتبر عصر الخليفة هارون الرشيد العصر الذهبي في الدولة العباسية إذ بلغت أعلى مراتبها في نواحي عديدة سواء ما كان من إتساع رقعتهاالجغرافية أو ما أفرزته من ثروة مالية أو ثقافية، ومع ما كان فيها من تقدم حضاري فلم تخل من ثورات داخلية، فقد كان العلويون يعتقدون أنهم أحق بالخلافة مما جعلهم يقومون بعدة ثورات، فقد حاول يحي بن عبد الله العلوي(مثلاً) تأسيس دولة علوية «شيعية» في بلاد الديلم في الشرق، كما حاول إدريس بن عبد الله العلوي تأسيس دولة علوية في مراكش، إضافة إلى ذلك فقد كانت هناك عدة ثورات ضد الدولة العباسية في الموصل والشام وخراسان وقد استطاع هارون الرشيد القضاء على هذه الثورات وإخماد نارها بحسن سياسته.

كان هارون الرشيد قد كتب عهدا لأولاده الثلاثة حيث أوصاهم بالخلافة للأمين ثم المأمون ثم القاسم الملقب بالمؤتمن، ولكن ما أن تولى أمين الخلافة حتى عزل أخاه المأمون - الذي كان من أم فارسية - من ولاية العهد ومزق كتاب الرشيد الموضوع في الكعبة، ومن هنا بدأ النزاع بين الأخوين، وكان في حقيقة الأمر نزاعا بين الفرس والعرب كلّ يريد استغلال نفوذ الدولة لعنصره، وقد أدىٰ هذا النزاع إلى حروب أنتهت إلى غلبة المأمون وتحولت الخلافة إليه،

وبذلك ازداد نفوذ الفرس وقويت شوكتهم[1].

وما أن استقر الحكم للمأمون حتى آوىٰ إليه المعتزلة الذين كانت لهم مواقف عدائية من المحدثين الذين كانوا يردون عليهم ويتهمونهم بالبدعة والفسق والكفر، يقول الدكتور عبدالحليم محمود وهو يصور لناالصراعات الداخلية في هذا العهد:-« أما في المجال السياسي فقد كان الصراع بين الفرس والعرب محتدماً يريد فيه كل فريق أن تكون له اليد العليا في أمورالدولة واحتدمت بسببه المؤامرات والدسائس في بلاط الخلفاء، كذلك كان صراع الشيعة للقضاء على الخلافة القائمة نفسها، وهو صراع صامت خفي ولكنه بالغ النشاط»[2].

ثم تلا ذلك فتنة خلق القرآن التي أثارتها المعتزلة للقضاء علىٰ خصومهم المحدثين و امتحان القضاة وتعذيب من لم يُفتِ بأن القرآن محدث ومخلوق[3] والتي كان الإمام أحمد بن حنبل ضحية لها، وكانت فتنة خلق القرآن ذات مغزى عقيدي وسياسي في نفس الوقت، فما دام المعتزلة قداستطاعوا كسب نفوذ الدولة، فقد رأوا إجبار مخالفيهم على ما اعتقدوه، ولكن صمود الإمام أحمد بن حنبل أمام كل الإهانات والتعذيب الذي لقيه كان انتصاراً لأهل السنة وهزيمة للعقيدة الإعتزالية.

---

1)- المسعودي، مروج الذهب ومعاني الجواهر/ج٤،ص٥.
2)- أستاذ السائرين،ص ٢٨.
3)- البداية والنهاية/ج١٠،ص٢٨٤.

٢ـ المحاسبي والفرق الإسلامية

أ ـ المعتزلة

لقد انتقد المحاسبي المعتزلة واتهمهم بالبدعة والضلال ورد عليهم وخطأهم في المناهج التي سلكوها كاعتمادهم علىٰ العقل وإعطائه حرية غير محدودة في فهم النصوص النقلية، يقول المحاسبي في نقده للمعتزلة:ـ«ومنهم منسوب إلىٰ العقل والدهاء مفقود الورع والتقىٰ»(1).

يذكر الدكتور عبد الحليم محمودأنّ المعتزلة استعملواالعقل والمنطق اليوناني في العقيدة ورأوا أنّه يجب تصحيح مفهوم الإله الخاطىء عند جمهورالمسلمين(2)، ومع أنّ المعتزلة أسهموا في خدمة الدين المتمثلة في ردّ هجمات أعدائه بصورة منطقية وعقلية، ومع أنهم قد وجدوا في الآيات القرآنية ما يؤيدهم في إعمال العقل والفكر، فقد أخطأوا الطريق إلىٰ ذلك، إذ أدت مقدمات منهجهم إلىٰ نتائج يمكن أن نجملها في سيطرة العقل وحكمه على النص فاصطدمت هذه النتائج مع العقيدة الصحيحة التي كان عليها الرسول صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح من بعده.

لقد رفض المحاسبي العقل الطاغي علىٰ النص عند المعتزلة كما أعاد النظر في حملة المحدثين على العقل وزهد الصوفية ورأى أن كل من حاول فهم النصوص الدينية من خلال منطلق غير إسلامي فسوف يقع في نفس المشكة التي وقع فيهاالمعتزلة وغيرهم من الذين تبنوا مناهج أجنبية، فالإسلام موجه ومرشد للعقل وليس العقل هو الذي يحكم النص(3).

---

1)ـ أستاذ السائرين،ص١١.
2)ـ أستاذ السائرين،ص٢٥ـ٢٦.
3)ـ نفس المصدر،ص٩٨.

ب ـ الفقهاء والمحدثون

كان الفقهاء والمحدثون هم الذين قاموا بأهمّ عمل إسلامي، إذ قامت حركتهم بتدوين العلم وتقنين الشريعة وأسس أحكامها حسب تطورالحياة في زمن اتسعت فيه رقعة الإسلام وامتددت لتشمل معظم أنحاء العالم، وبتدوين العلوم ووضع أصول وضوابط لها انتفى الخطرالذي كانت تواجهه السنة النبوية من جانب الوضاعين ومن جانب المنكرين لها.

يرى الدكتور عبد القادر عطا أن الفقهاء(وخاصة الفقهاء الأربعة؛ مالك، أبوحنيفة، الشافعي وأحمد) لم يكن لديهم وقت لتدوين فقه أعمال القلوب إذ كانوا مشغولين بتدوين فقه أعمال الجوارح [1]، هذاالقول ليس صحيحاً للأسباب التالية:ـ

١ـ ليس في الإسلام فصل بين أفعال الجوارح وأعمال القلوب، فالأعمال تحسب بنياتها كماقال النبي صلى الله عليه وسلم « إنما الأعمال بالنيات وإنمالكل امرئ مانوى»[2].

٢ـ لقد أورد الفقهاء والمحدثون آيات قرآنية وأحادث نبوية تتحدث عن النفس وتطهيرها من الآثام، فعلىٰ سبيل المثال نرىٰ مالكاً ـ رحمه الله ـ(المحدث الفقيه) أورد في موطاه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس الشديد بالصرعة، وإنّماالشديد الذي يملك نفسه عند الغضب »[3]، وغيرها من الأحاديث.

٣ـ صنف الإمام أحمد كتاباً في الزهد كما صنف الإمام المحاسبي كتباً في فقه المعاملات ككتابيه «فهم الصلاة» و«المكاسب والرزق الحلال».

كل ذلك يدل علىٰ أنّ أولئك العلماء رحمهم الله لم يهملوا الجانب الباطني من الإسلام، ولكن الذي يمكن أن نقوله هو أن المحدثين كانوا يركزون على تدوين علوم الشريعة لِما ذكرنا من

---

1)ـ مقدمة كتاب «معاتبة النفس»،ص١١.
2)ـ رواه البخاري ومسلم.
3)ـ مالك بن أنس،الموطأ ـ كتاب الجامع ـ باب ماجاء في الغضب.

حدوث تطورات تقتضي ذلك، في حين كان المحاسبي يتخصص في معرفة أمراض النفس كمايتخصص طبيبٌ في أمراض الكِليَة وآخر في الصحة العامة.

كان المحدثون ينتقدون من اتخذ منهجاً مغايراً لمنهجهم، وقد نال المحاسبي قسطا من تلك الإنتقادات والتي تتمثل فيما يرويه البغدادي في تاريخه، فقد ذكر أن الإمام أحمد بن حنبل قال يوماً لإسماعيل بن إسحاق السراج بعد أن استمع(الإمام أحمد) إلى حلقة من حلقات المحاسبي بدون علم المحاسبي:-« ما أعلم أنّي رأيت مثل هؤلاء القوم، ولا سمعت في علم الحقائق مثل كلام هذا الرجل، وعلى ما وصفت من أحوالهم فإنّي لا أرىٰ لك صحبتهم»(1).

أما سبب ترغيب الإمام أحمد عن صحبة الإمام المحاسبي قد أشار إليه الحافظ بن كثير حيث قال:-«يحتمل أن أحمد كره له صحبتهم لأن الحارث بن أسد وإن كان زاهداً فإنّه كان عنده شيء من علم الكلام، وكان أحمد يكره ذلك»(2).

ج - الصـــوفيـــــة

لقد كان التصوف ردّ فعل للصراعات الفكرية والسياسية والدينية، فظهرت طوائف من الزهاد في هذا العصر أرادت حسب إعتقادها إعادة بهاء الإسلام على ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح من بعده، ولكن هذه الطوائف لم تكن ذات أثر يذكر في الساحة إذ قصرت جهودها في الدعوة إلى حياة التقشف والزهد والعزلة في مواجهة الترف الذي انتشر في ذلك الوقت، كما وأنهم أهملوا جوانب من واجباتهم الإجتماعية.

1- تاريخ بغداد/ج٨،ص٢١٥.
2)- البداية والنهاية/ج١٠،ص٣٣٠.

لهذه وغيرها من الأسباب انتقد المحاسبي بعض الصوفية الذين أتو ببعض المخالفات في الدين، فقال في نقد الصوفية المتطرفة:-« كما اعتقد قوم الزهد في الدنيا بتضييع العيال وبترك وجوب حق الوالدين، والتوكل بترك الاكتساب على العيال والأهل والأولاد، والخروج في السفر بلا زاد، والرضا بالسرور بالبلاء، وبالإشتغال بالله عزّ وجلّ بترك الفرائض، وبترك النوافل ودعوىٰ البصائر، واستنارة القلوب بادعاء عم الغيوب من القطع على ما في ضمائر الخلق وما يسرون ويكتمون، ويحتجون في ذلك بآثار مثل قوله صلى الله عليه وسلم«المؤمن ينظر بنور الله »[1]، ثم قال:-« وكل فرقة ممن ذكرنا تحتج بالآثار، والكتاب والمقاييس، ولكن يطول ذكرها وإنّما أردنا تحذير جملتها ليعرف العالم المتثبت بالكتاب والسنة»[2].

هذا إن دل على شيء فإنّما يدل على موضوعية المحاسبي ونقده البناء وعدم تعصبه لكل دعاوي التصوف، كما يدل على أن المحاسبي لم يتبنّ المنهج الصوفي بكل حذافيره، وإنما درسه دراسة نقدية، وتعمق في دراسة أحوال الصوفية في عصره حتى اتضحت له مواضع الخلل التي حاول إصلاحها، وقد تأسىٰ به الغزالي[3] ،فيمابعد حيث اتخذ منهجه في دراسة الفرق، وكذلك في التدوين كما طور كثيراً من أفكاره،وسيتضح ذلك إن شاءالله من خلال بعض الفصول في هذا البحث.

---

1)- الرعاية ،ص٩٧-٩٨.
2)- المصدرالسابق.
3)- هو أبو حامد، محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الطوسي، ولد بمدينة الطوس عام ٤٥٠هـ/١٠٥٨م وتوفي فيهاعام ٥٠٥هـ/١١١١م(أبو ريان تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، ص٣٣٦-٣٣٩، ومصطفى غالب ،العزالي ،ص١٦.

ولقد كان تصوف المحاسبي تصوف سنيا، اهتم فيه بفقه الحياة العامة، فقد ألف كتابه المكاسب في فقه المعاملات ـ كما ذكرنا سابقاً ـ، واهتم بالجانب الفكري فألف فيه كتاب العقل وفهم القرآن، واهتم بالجانب الروحي كما هو واضح من أكثر مؤلفاته.

د ـ الموقف الذي اتخذه المحاسبي من هذه البيئة

لقد فكر الإمام مليا وتدّبر برهة وألقى نظرة شاملة على أحوال الأمة وكان الذي يشغل عقله أحوال الأمة والتدهور الذي حل بها من نواح عديدة.

يقول الإمام وهو يصور لنا حالته الفكرية التي أدّت به إلى اتخاذ منه معين:ـ« فلم أزل برهة من عمري أنظر اختلاف الأمة وألتمس المنهاج الواضح والسبيل القاصد وأطلب من العلم والعمل، فقصدت إلى هدى المهتدين بطلب السداد والهدى وأسترشدت العلم، وأعملت الفكر وأطلت النظر فتبين لي في كتاب الله تعالى وسنة نبيه وإجماع الأمة أن اتباع الهوى يعمي عن الرشد ويضل عن الحق ويطيل المكث في العمى»(1).

هكذا انتهى الأمر إليه وتوصل إلى أنّ الفكر يجب أن يجرد عن هوى النفس وإلاّ قاد صاحبه إلى الجحود والمكابرة والعمى عن الرشد والحق.

وقد قام المحاسبي بتحليل النفس والكشف عن العقد الكامنة فيها، وبدأ بمحاولة الغوص في أصل الداء وتشخيصه ثم تعيين الدواء

---

1)ـ الوصايا ،ص٥٩ـ٦٠.